الساكن الجديد

يمكن أنه وقع في سالف الزمان حادث غير مألوف في حيّ عتيق من أحياء القاهرة. فقد نزل بذلك الحيّ رجل سريّ المظهر، واختار لسكنه منزلاً قديماً متهدماً يملكه الحاج حسن الشربيني، الشيخ العريق الحال.

وتجمع أناس من أهل الحي أمام منزل زميلهم، وطفقوا يتساءلون عن السبب الذي دعا ذلك الغريب السريّ الى اختيار هذا المنزل للإقامة فيه. وقال أحدهم بعد أن مدّ من فرجيلته نفساً طويلاً، وأطلق دخانها في الهواء:

— يبدو لي أنه غير مصري.

فعقب رفيق له يجلس الى جواره:

— ولِمَ ذلك؟.. ألأنه صبيح الوجه مشرقه؟.. هو العز الذي يضفي على صاحبه مثل هذا الرونق.

ورفع أحد الحاضرين فنجان القهوة عن فمه وقال:

— يخيّل إليّ أنه أمير.

وشرق مدخن الفرجيلة بدخانها على أثر ضحكة انفجر بها، وتساءل متهكماً بعد أن سكن هو والذين جاروه في الضحك:

— أمير يقطن حيّنا؟!!..

وظهر الحاج الشربيني حينئذ على عتبة المقهى، وقال وهو يضحك من أعماق صدر متأثرة في فمه المثلم:

— ولِمَ لا يقطن داوي أمير؟!.. إنه صديق كبير عطير.

وتدافعت الأسئلة دبابة عليه من كل جانب .

— أقابلته ؟ ...

— ماذا قال لك ؟ ..

— وكيف عرفت أنه سنجق ؟ ؟ ...

— اصمتوا حتى يقص علينا الأمر .

— أتيحوا له فرصة الكلام .

وجلس البيك إلى جوار مدخن النرجيلة مزدوًا بنفسه . وقال بعد أن سكتت الجلبة .

— شاهدت لعبي شارة وظيفته مطبوعة على أوراقه ، وعلى أثاثه .

ألم تروا خاصه في تودد للرقي بالقصب ؟ ! انه من سناجق المماليك المرموقين .

فحاوره جليسه قائلاً :

— إذا كان الأمر كما تقول فلا بد من أن تكون دولته قد ذالت .

وقال آخر :

— لا بد من أنه فقد جاهه وماله .

فاحتج الحاج قائلاً :

— لا ، إن مظهره يدل على الغنى . ألم تروا خادمه في حلته الثمينة ؟ ألم تشاهدوا ريشه أثناء نقلها الى الدار ؟

ثم دس يده في جيبه ، وأخرج قبضة من النقود الذهبية وضعها على المائدة . وصاح وقد انفرج ثغره عن ابتسامة عريضة .

— انظروا ... لقد دفع لي قيمة الايجار عن الثلاثة الأشهر القادمة ...

هذا القصر المكون من ٤٠ ...

مرّت الأيام ، وتحوّل المكرون الى مصدّقين ، وانقلب استخفافهم بالسنجق الى إعجاب به ، وتغار إقامته بين ظهرانيهم . وزاد هذا التبدل الذي طرأ على القوم زهو الحاج الشربيني واعتزازه بداره التي شرّفها ذلك العظيم باختيارها سكناً له وتبدّل حال الحيّ فلم يعُد في مثل الركود الذي كان غارقاً فيه من قبل . بل تعددت المشاهد التي بهرت قطانه . كلّ بعض

فرسان يقصدون على ظهور جيادهم المطبخة دار السنجق ، ويجيرق فيها ليالي الهو والطرب شملاً الأرجاء ألحان شجية تتخللها صيحاتهم وقهقهاتهم .

وتناول خادم السنجق في ليلة تغيب فيها مخدومه عن داره ، وتوجه الى ذلك المقهى الذي سبق ذكره ، وأخذ يحدث المجتمعين فيه عن جاه سيده العريض ، وسلطانه العتيد ، عن تواضعه على الرغم من ذلك الجاه والسلطان . ثم تطرّق الى ذكر ثرائه الواسع ، وأخذ يعدّ الجود الذي كثيراً ما أتى على ما عنده من مال قبل أن يرسل اليه ناظر مزرعته وليها سنوي الوفير .

وتعددت زيارة الخادم للمقهى ، وبلغ مستمعيه في كل مرة ، وبالغ مرة في إحاطة نفسه بمظاهر الوقار حتى بدا كأنه السنجق نفسه . وذات ليلة لمح ذلك الدار التي حازت الخمسين ألفاً .

— لا بدّ لي من أن ألفت نظركم إلى أمور لا يعرفها منكم فالسنجق لا يزال ولكنه ليس الذي يستدعي من يشاء الى داره متى يشاء ، والسنجق لا يطالب بمال ولكنه يغدق من ماله متى يشاء على من يشاء .

وكان صوت الخادم وهو يلقي عباراته رهيباً فلم يجرؤ على بث الريبة في قلوب مستمعيه وانقضت الشهور الثلاثة على هذا المنوال . وحلّ دفع قيمة الايجار الجديد . ومنى الحاج نفسه بأن ينفحه السيد العظيم قبضة أخرى من القطع الذهبية . ولكن الأيام تعاقبت بعضها في إثر بعض دون أن تتحقق هذه الأمنية . وساوره القلق ، ولكنه قلّ يتظاهر رفاقه من روّاد المقهى بالاطمئنان ، ويضع السنجق فوق كل مظنة . على أنه كان لا يملك من حطام الدنيا الاّ تلك الدار ، وليس له من مورد لرزقه ورزق أولاده الاّ ما تغله . فلما زال انقطاع ذلك المورد عنه ساءت حاله ، وضعف وعجز أهل بيته الجميع ، وخاله يسير فلم يطق الكرى . وراح يقص على أولئك الرفاق ما يعاني من ضيق . فقال له مدحت الخرجية ، وكان يمت اليه بصلة نسب .

وما الذي أسكتك الى الآن ؟ اذهب اليه ، واشك له سوء حالك فهو اذا ما وقف على حقيقة أمرك أعطاك فوق ما تطلب .

وتحاشت العبارات التالية من جواب المتهى من التعاقب .

— لعل السجن لسيك ! فقيمة إيجاره لا تخطر لمثله على بال

— اذهب اليه واطلب تقودك ، فهو لا يرضى بأرخاق فقير مثلك .

— لم لا اذهب اليه ؟ . . لا شك في أنه سيرحب بك ، ويطيب نفسك

وهز الحاج رأسه متنهداً وغمغم .

— السجن لا يزار . . . السجن لا يصاب بخير .

وأسقط في يد القوم ، فما وجدوا أن ليس في الأمر حيلة ، صارحوا صاحبهم القصير بأن ليس له في مثل هذه الحالة إلا الانصراف .

وكان خادم الأمير يتحاشى في تلك الأثناء المقهى . ولكنه توجه اليه أخيراً في ليلة حصبا القوم سعيدة الطالع ، وأخبر الحاج أن سيده يطلب فأذن له بزيارته في الصباح التالي . وما كاد الرسول يعود أدراجه حتى ساح الشيخ متهللاً .

لقد كنت أتوقع ذلك ، والسجن لا يهضم الحق كغيره من الناس ولا يستهين بأشرف استهانتهم به .

وتنفس القوم الصعداء ، وتباروا في تمجيد السيد الكبير والتحدث بمناقبه .

وأسرع الحاج في الصباح الى منزل السجن ، فاستقبله هذا الأخير لعاشاً ، وابتدره بقوله .

— لعنة الله على ناظر مزرعتي ! ذلك الخبيث الذي لم يرسل إليّ حتى الآن ما طلبت من مال . على أنه بعث إليّ منذ يومين بخطاب يدعو الى الطمأنينة . وأنا لن أكتفي حين وصول المال المنتظر بدفع الإيجار الذي تطلب فحسب ، ولكني سأضعف إيجار العام المقبل مثلاً .

وجلس الحاج في جليسه وقد برقت أسارير ، وانشرحت أنفاسه . وواصل السيد كلامه بعد تردد قصير

— وبما أن نقودي قد نفدت ، فأعطني مبلغ خمسين جنيهاً على أن أرده إليك مع المبالغ الأخرى .

ودار المكان بالحاج ، وأظلمت الدنيا في عينيه . وحاول أن يذكر السجين أنه زلة

ماله ، وجزع عياله ، وقضاءه أياماً طوالاً لا تنتهي عنه فيها على قضاء [illegible] لكن الكلمات مضرجت في حلقه الذي جف ويبس ، وظل السجين خلف [illegible] ثم يعد الى رشده إلا على صوت الخادم الذي طرق بابه وهو يقول له في [illegible]

— ماذا دهاك ؟ ... ألم يعطك سيدي ما تسأل ؟

فأجاب فاغراً فاه :

— لا ياسيدي ، بل طلب مني خمسين جنيهاً ... أنا القن لا يملك خمسة قروش .

وصاح الخادم وهو يبدي دهشته :

— أتطلب منك هذا المبلغ حقاً ؟ ... أتراك لم تر هذا الشرف الكبير ؟

فتمتم الحاج في مرارة :

— ولكني لا أملك شيئاً . ألا تفهم معنى قولي ؟ ... أنا لا أملك [illegible]

ورفع الخادم رأسه ، وحدج الحاج بنظرة صارمة ، وقال :

— طلب السجين أمر واجب الطاعة ، فلا تعصني لئلا من أن أصفع لك [illegible]

واجتمع الحاج في المقهى بنسيبه ورفقائه ، وأطلعهم على مصابهم [illegible] بينه وبين كل من السجين وخادمه . ولما رأى الوجوم يسود أفق الوجوه ازداد انقباض نفسه ، وأخرج منديله الأحمر العريض ، وأخذ يمسح به العرق المنصب من وجهه

وقال نسيبه ، بعد فترة سكوت .

— إن الله ذاته لا يكلف نفساً فوق وسعها .

وعدّ بعض الحاضرين هذه العبارة تحدياً للسجين فلم يتمالكوا الرد ، وصاح أحدهم

— لا يجمل بنا أن نخذل سيداً كبير القدر في ضيقه

فردّ الحاج محتداً .

— ولكننا لفاني ضيقاً أشد من ضيقه .

وعقب نسيبه بقوله :

— من أراد منكم عزل السجين ، فليعنه بماله لا بمال غيره .

فتعالت الصيحات من جوانب المقهى :

— لا يجمل بنا أن نفعله .
— لا بد من أن نتعاون على تلبية طلبه .
— هذا واجب لا مفر منه .
— أنا أدفع جنيهاً .
— وأنا أدفع جنيهين .

واشتطت الحماسة بين الحاضرين ، فجادوا بثمن قراهم ، ولم يعبأ الفتاة عن مجموع ما قدموه المبلغ المطلوب . وجاء الخادم الى المقهى يستطلع أخبار الحاج ، فرجع مسرعاً سيده مرفوراً ، فحمله اليه راضي النفس مسروراً .

وتعاقبت الأيام دون أن تنفرج أزمة السجين فبقي [illegible] أهل الحي في تدبير ضيافة الحاج كما فرجوا ضيق مضيفه ، الذي إذا استقبل [illegible] قرنه ، وسره نفسه حتى تدخين الغرجيلة ليوفر مطاق الاسترخاء .

وكانت الليالي تمر بالمقهى متعاقبة لا يجد فيها جديد ، فالزبائن الذين يملأون المقهى بعينها في كل ليلة ، والأحاديث التي تدور بينها لا تختلف ولا تتنوع . فما أن فرغت محل ذلك المقهى في إحدى الليالي واستأثر فضول الحاضرين ، وكان جاء ليتابع سيرة [illegible] أهل الحي فلم يشبعه ، ورأى أن ينتظر نهوضه ، فانتحى ركناً من الأرائك ، وانخذ له مقعداً فيه . وجعل القوم يتحدثون عن السيد الكبير ثقاف فمار الحديث وسألوه :

— أهو طويل بدين مطلق ، وجهه أبيض ، وشعره أحمر ؟؟ .

فصاح الحاضرون :

— هو كذلك ... أتعرفه ؟

ولكنه على ما يظهر :

— أهو خادم رحيم بالفقراء ؟

فأجابوه متهللين :

— لنعم هو بعينه .

وانبرى أحدهم يسأله :

— ما أخبره عنه ؟

— أهو سجين حقاً ؟

— أجل فيم ؟

— حدثنا عنه يرحمك ...

وصمت الغريب حتى سكتت الضجة ، ثم طفق يقول :

— نعم ، كان سنجقاً واسع الثراء ، ولكنه لم يتوان عن [illegible] لاحلاً به الفقر بعد الغنى ، عجز عن احتمال قلة الفاقة ، وراح يلتمس المال عند [illegible] من مسارفه القدماء ، فكان يقصد الواحد من هؤلاء فلا يرجع من عنده إلا [illegible] ثوبه ، ولم تنفق لم تعرف القاهرة أبخل منه ، وعاش على كرم أصدقائه عيشة لا تقل في مظاهر [illegible] عن عيشته أيام ثرائه .

ولكن كرم أصدقائه لم يلبث أن شارف نهايته ، فأخذ [illegible] به ومطالبه ، ويوصدون أبوابهم في وجهه فقصت موارد رزقه ثم نضبت ، وعجز عن [illegible] فطولب بمغادرته . وتناقلت الألسن أخباره التي سرعان ما وصلت الى خدم الفندق ، فأشفق هؤلاء عليه ، وتفقروا حاله ، ورأوا أن يتعاونوا على تفريج كربته ، فجاد كل منهم من وسعه وجمعوا خمسين جنيهاً ، والتجأوا الى خادم السنجق ليرفع الى سيده سنجق [illegible] ، لكن الخادم هاد بها إليهم ، وأنبأهم أن مخدومه لا يقبل منحة من الخدم ثم أردف يقول : سيقول هبة تقل عن مائتين من الجنيهات .

وتبدّى جلاس المنهى فرحاً لدى سماع هذا القول ، وصاح أحدهم .

— ولكن السنجق كرّمنا فقبل منا هبتنا .

وصاح آخر .

— لقد رضي منا بخمسين جنيهاً فقط !! ..

وابتسم الزائر الغريب ثم أردف .

— لكن السنجق بعث برسوله بعد برهين الى خدم الفندق يفهمهم أنه رأى بعد التروي أن يقدر عاطفتهم النبيلة ويقبل هديتهم ....

وطأطأ القوم رؤوسهم ولم يغرق أحدهم على القطع برأي في أمر السنجق الى أن تعالى صوت من أحد الأركان يقول .

— يا لهم من سيد كريم نبيل !!

فهزّ القوم رؤوسهم مصدقين ، وهمهموا مؤيدين ....

واستمسكت الشفة التي كان نصيب الحاج محمد يمانيها . فانه لم [illegible] على قوت عياله إلا بهش النمس . فعما قليل عاد يتوه [illegible] عن نفسه بانتقاص قدر السنجق ، والنيل من سمته ، ووصمه بخراب الذمة . وأخذ [illegible] الحاج الى المطالبة بحقه في الاستمداد في ذلك . وقال له في عصر أحد الأيام [illegible] النمس

— لماذا تتهمه إلى هذا الحد ؟ ! أخصم حقك ، ويغرك وأهل بيتك ، إلا جائعين ، بينما ينفق هو المال على نفسه وطيره بغير حساب ؟ ثم لا يكون جزاؤه منك إلا التبجيل والتكريم ؟

فكر الحاج هنيهة . ثم رفع بصره إليه وقال :

— إن كنت أنت لا تخشاه فاذهب إليه وطالبه بحقي نيابة عني .

فهدّج الرجل حماسة وصاح .

ولِمَ لا أذهب إليه ؟ أتحسب أنه سيسلخ جلدي ؟ .. أو سيدقني حيًّا ؟ ! ما هذه المسكنة التي ضربت على أهل هذا الحيّ ؟ !

وانتفض الحاج فجأة وهمس في أذن جليسه .

— أنظر ... ها هو ذا مقبل صوبنا .

وكان السنجق يسير الهوينا تحف به الهيبة والوقار . ووقف الرجلان حيرى ، إذ اقترب منهما . وانحنيا له حتى كاد رأساهما يلمسان الأرض

ولكن الجدل لم يلبث أن احتدم بين الرجلين ثانية ، ثم أخذا يتبادلان الأمر في دورة على مختلف وجوهه حتى استقرّ رأيهما على أن يرفع الحاج عريضة الى السنجق يشرح فيها سوء الحال ، وشدة حاجته الى المال .

وكتب لها العريضة صديق من جلساء المقهى يكاد يرسم الحروف رسمًا ، وبالغ في وصف بؤس الحاج ، كما بالغ في الاشادة بشمائل السنجق وبعطفه على المعوزين ورحمته بهم .

وأرسل السنجق في طلب الحاج على أثر وصول العريضة اليه ، وقال له حين مثل بين يديه

— أأنت فقير الى الحد الذي شرحته في استرحامك ؟ ؟

فأجابه الحاج بصوت منهدج ؟

— أولاستي جياع يا سيدي الأمير .

فقال السنجق وهو يبتسم ابتسامة إشفاق :

— أنا رجل عادل ، وأرى أنه لا يجوز أن تحتمل هذا العبء وحدك . فعليك أن تجد لي مسكنًا آخر من منازل الحيّ خاليًا لأنتقل إليه ، وأدع لك عادلك لتستغله كما تشاء . وسأظل أتنقل بين مساكن الحيّ حتى ترد لي نقودي . فإن واجب كل سنجق أن يضحي كفوه في سبيل السنجق ... هذا هو العدل التام .

وقام فحيّى الحاج وهو يبتسم ابتسامة دلت على رضاه التام عن نفسه .

محمد عبد الحليم عبد الله